

12

2015

الرائدون

النفس في التراث العربي الإسلامي

إصدارات لجنة التراث النفسي العربي الإسلامي

عدد 12

النفس وعلومها من منظور تطوري ثقافي مختلف



2015

إصدارات مؤسسة العلوم النفسية العربية



الإنسان

في فكر ابن قيم الجوزية

(دراسة نفسية-تربوية)

د مصطفى عتوي

الفهرس

	- مقدمة
6	- منهج ابن القيم
7	- المذهب من الدراسة
8	- منهج الدراسة
13	1- البعد البدني
15	- الرأس
15	- العين
16	- الأذن
17	- أهمية السمع والبصر
17	- الأنف
18	- الفم
19	- القلب
20	- الدماغ
23	- الصحة الجسمية
26	- العناصر الأربعة والإنسان
27	- خلاصة البعد البدني
28	2- البعد الروحي
28	- تعريف الروح

29	- خلق الروح
30	- الروح والحياة
32	- الروح والغيب
34	- الروح والنفس
37	- أمراض القلوب وشفاؤها
40	- تأثير الأرواح في الأجسام (الإصابة بالعين وعلاجها)
42	- الرقية
43	- الصرع وعلاجه
44	- علاقة العبد بربه
45	- تفاوت الأرواح
46	- مفهوم الضال عند ابن القيم
50	- خلاصة البعد الروحي
50	3- البعد الوجداني:
51	- دفع الغضب
53	- الحزن
54	- علاج حر المصيبة (مصيبة الموت)
57	- علاج الكرب والمم والحزن والفزع وعلاج الأرق
57	- المحبة ومفاسد العشق
59	- مراتب الحب
59	- تأثير المحبة
59	- أنواع المحبة
62	- مفاسد العشق
63	- أقسام العشق
64	- علاج العشق
65	- المحبة واللذة
65	- الغيرة

67	- العسد
69	- الفرع والسرور
71	- خلاصة البعد الوجداني
71	4- البعد العقلي (المعرفي)
71	- نمو العقل
72	- أنواع العقل
73	- العلم والإرادة
73	- اللغة والفكر
74	- العلم والجمال
75	- العلم والإيمان
76	- ارتباط الحواس بالعمليات العقلية
78	- الذاكرة
79	- العلاقة بين الجانب العقلي والجانب الروحي
79	- خلاصة البعد العقلي
80	5- البعد السلوكي
82	- دور النية في السلوك
83	- الفروق الفردية في السلوك
83	- البعد الاجتماعي للسلوك
85	- السلوك والإرادة
86	- السلوك والأسباب
86	- السلوك والتربية
89	- العلم والأخلاق والسلوك
94	- خلاصة البعد السلوكي
95	- ملمع الإنسان في فكر ابن القيم
98	المراجع والمصادر

الإنسان في فكر ابن قيم الجوزية

منهج ابن القيم

قام منهج ابن قيم الجوزية في دراسته لمختلف المواضيع المشار إليها أعلاه على استنباط الأحكام من الكتاب والسنة والإجماع وفتوى الصحابة والقياس، واستصحاب الأصل، والمصالح المرسله، وسد الذرائع والعرف¹. واعتمد ابن القيم في منهجه على إيراد الأدلة النقلية والعقلية، كما اعتمد للدفاع عن آرائه على المشاهدة والتجربة التاريخية والتجربة الشخصية في بعض الأحيان.

ولكن ابن القيم في كتابه "الطرق الحكيمة" لم يغفل الإشارة إلى منهج الاستقراء القائم على جمع جزئيات قضية ما وبناء حكم كلي بناء على عملية الجمع والتكيب للجزئيات، كما سيشار إلى ذلك لاحقاً. وأعطى أمثلة كثيرة لكيفية استخدام هذا الأسلوب للاستنتاج والاستدلال في إصدار الأحكام القضائية وخاصة تلك التي لم يرد فيها نص.

وقد شرح ابن القيم في كتابه "أعلام الموقعين عن رب العالمين" أسلوب القياس، وأكد أنه "ليس في الشريعة ما يخالف القياس"، والقياس هو "الجمع بين المتماثلين والفرق بين المختلفين؛ فالأول قياس الطرد، والثاني قياس العكس..."². وقد استعمل ابن القيم القياس في كثير من آرائه وخاصة عند ترجيح رأيه على بقية الآراء التي يوردها بموضوعية وبناقشها بالدليل الشرعي والعقلي في أغلب الأحيان.

وابن القيم وإن كان حنبلي المذهب إلا أنه لم يتعصب لمذهب معين بل غالباً

ليس من أهدافه هذا البحث إجراء مقارنة بين فكر ابن القيم وعلماء النفس أو علماء الاجتماع المعاصرين، وإن كنت سأشير بصفة مختصرة لبعض الجوانب التي أسهم فيها ابن القيم مما له علاقة بعلم النفس الحديث

ما كان يورد أدلة المؤيدين والمخالفين لقضية ما، ويرجح في الأخير رأياً أو حكماً معيناً سواء كان ذلك في الجانب الفقهي أم في غيره من الميادين العلمية كما سيتبين ذلك عند عرض بعض الآراء التي وردت في هذه الدراسة كما هو الحال في قضية أسقية خلق البدن عن الروح، ومفهوم الروح في القرآن الكريم وقضية النفس الواحدة وصفاتها المتعددة وغير ذلك من القضايا التي تتعلق بأبعاد الإنسان: البدنية والروحية والعقلية والوجدانية والسلوكية.

المدونة من الدراسة

الهدف من هذه الدراسة، التي تشكل حلقة من عدة حلقات تتناول كلها موضوع "الإنسان بين التكامل والكمال في إطار الفكر الإسلامي القديم والحديث"، إعداد مادة أولية تصلح لأن تكون قاعدة لبحوث ودراسات أشمل وأعمق للدراسات الإنسانية بصفة عامة وللدراسات النفسية والاجتماعية بصفة خاصة؛ الشيء الذي يساعد الباحثين على استخراج فرضيات وتسؤلات علمية قابلة للفحص والتمحيص، وعلى ربط التراث الإسلامي بعلمه الشرعية والطبية والفلسفية وغيرها بالبحوث العصرية في ميادين اختصاصاتهم وخاصة في العلوم الطبية والنفسية والاجتماعية.

وقد جاءت هذه الفكرة كاستجابة للحاجة الماسة التي لمسها الباحث عند تدريسه لعلم النفس وخاصة "علم نفس الشخصية" لسنوات عديدة في أكثر من جامعة في العالم الإسلامي.

وينبغي أن أوضح أنه ليس من أهداف هذا البحث إجراء مقارنة بين فكر ابن القيم وعلماء النفس أو علماء الاجتماع المعاصرين، وإن كنت سأشير بصفة مختصرة لبعض الجوانب التي أسهم فيها ابن القيم مما له علاقة بعلم النفس الحديث.

وقد كان موضوع مقارنة "الطبيعة البشرية" محور دراسة أخرى قدمها الباحث قارن فيها المنظور الإسلامي للطبيعة البشرية بمختلف النظريات العصرية التي تناولت هذه الطبيعة وتصوراتها في الشخصية الانسانية في علم النفس الحديث.

يلاحظ المتخصص في علم النفس الحديث خلو أغلب كتب "علم نفس الشخصية" من الإشارة إلى البعد الروحي مثلاً في الإنسان؛ إذ يعتبر هذا الجانب ميدان الفلسفة بدلاً من ميدان علم النفس

إن تقديم مثل هذه الدراسة قد يغطي بعض أوجه النقص في دراسات علم النفس الحديث وخاصة في مجال علم نفس الشخصية.

(نظرية التحليل النفسي، نظرية السمات، النظرية الانسانية، النظرية السلوكية ونظرية التعلم الاجتماعي والنظرية المعرفية)³.

ويلاحظ المتخصص في علم النفس الحديث خلو أغلب كتب "علم نفس الشخصية" من الإشارة إلى البعد الروحي مثلاً في الإنسان؛ إذ يعتبر هذا الجانب ميدان الفلسفة بدلاً من ميدان علم النفس؛ وذلك رغم إدراكنا أن أغلب نظريات علم النفس الحديث وخاصة في ميدان علم نفس الشخصية مبنية على أسس فلسفية أو على تجارب شخصية تم تفسيرها وفق نسق فكري أو فلسفي محدد بصفة شعورية أو لاشعورية غالباً ما يستند إما إلى خلفية دينية مسيحية-يهودية وإما إلى خلفية اديولوجية وضعية. وعليه، فإن تقديم مثل هذه الدراسة قد يغطي بعض أوجه النقص في دراسات علم النفس الحديث وخاصة في مجال علم نفس الشخصية.

وبالإضافة إلى ما ذكر، فإن لهذه الدراسة أهدافاً تطبيقية في علم النفس والتربية؛ إذا أن فهم مختلف أبعاد الشخصية المذكورة أدناه بأسلوب تكاملي قد تكون له تطبيقات مثلاً في المجالات الآتية:

- 1- العلاج النفسي: دراسة منشأ الاضطراب النفسي وكيفية تأثير الاضطراب في جانب من جوانب الشخصية وكيف تتأثر الجوانب الأخرى بهذا الاضطراب.
- 2- دراسة السلوك التنظيمي: ونعني به دراسة سلوك الأفراد والجماعات داخل المنظمات أو المؤسسات كموضوع الدوافع والقيادة والاتصال والقيم والثقافة وتأثره بمختلف أبعاد الشخصية.
- 3- المجالات التربوية: ومن أمثلة ذلك وضع البرامج والمقررات الدراسية، والإرشاد والتوجيه التربوي ومراجعة المناهج على ضوء أبعاد الشخصية المذكورة، وكذلك أساليب معاملة الأطفال وتأديب الولدان.

منهج الدراسة

يتمثل المنهج المعتمد في هذه الدراسة على جمع وعرض وتحليل مختلف الجوانب المتصلة بالإنسان التي تعرض لها ابن قيم الجوزية وتصوره للإنسان بصفة عامة؛ وذلك من خلال نموذج خماسي الأبعاد أقدمه كإطار للتحليل؛ وهذه

يتمثل المنهج المعتمد في هذه الدراسة على جمع وعرض وتحليل مختلف الجوانب المتصلة بالإنسان التي تعرض لها ابن قيم الجوزية وتصوره للإنسان بصفة عامة؛ وذلك من خلال نموذج خماسي الأبعاد

هذه الأبعاد (الجوانب) هي: البعد الجسمي، البعد الروحي، البعد العقلي، البعد الوجداني والبعد السلوكي.

الأبعاد (الجوانب) هي: البعد الجسمي، البعد الروحي، البعد العقلي، البعد الوجداني والبعد السلوكي.

ولا يخفى أن كل بعد من هذه الأبعاد يتفرع إلى جوانب فرعية أخرى كثيرة تشكل ميادين اختصاصات متعددة، متشابكة ومتكاملة. فالجانب الجسمي مثلا هو ميدان علم الأحياء (البيولوجيا)، وعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا)، والطب بفروعه المتعددة وعلوم الصيدلة وعلم الوراثة؛ إذ أن هذا الجانب يؤثر فيه الوراثة والغدد الصماء وغير الصماء والجهاز العصبي ومختلف الأعضاء الحيوية بالجسم كالقلب والكبد والكليتين والرئتين.

وكذلك الجانب الروحي متعدد الجوانب الفرعية فمنها ما يتعلق بحقيقة الروح وارتباط الروح بالبدن، ومنها ما يتعلق بتأثير القوى الغيبية في الإنسان، ومنها ما يتعلق بتأثير الاعتقاد في التفكير والسلوك، ومنها ما يتعلق بالعلاج الروحاني مما سيرد ذكر بعضها لاحقا. وقد تناولت هذه المواضيع عدة اختصاصات مثل العلوم الشرعية وعلم الكلام والفلسفة والطب النبوي وغير ذلك.

أما الجانب العقلي؛ فهو ميدان عدة اختصاصات فرعية أيضا مثل علم الأعصاب وعلم النفس العصبي وعلم النفس العام وعلوم التربية.

أما الجانب الوجداني فهو ميدان علم النفس والشعر والفنون بصفة عامة والطب النفسي والطب العام وعلم وظائف الأعضاء إذ أن بعض هذه الميادين مهتمة بالأصل الجسماني للانفعالات كتأثير الغدد والهرمونات بينما بعضها الآخر مهتم بتأثير الجانب العقلي والإدراك في نشوء الانفعالات وتصريفها وفق إدراك معين بينما يكتفي بعضها بوصف الانفعالات دون البحث في أسبابها وكيفية التصرف فيها.

وأخيرا، فإن الجانب السلوكي هو تعبير لتفاعل وتبادل التأثير والتأثير الذي يتم بين مختلف الأبعاد التي تشكل شخصية الإنسان. وقد يتخذ هذا التعبير شكل السلوك الفردي أو الثنائي أو الجماعي أو الاجتماعي بحيث يصبح ميدان السلوك في هذه الحالات إما ميدان علم النفس الاجتماعي أو ميدان السلوك التنظيمي أو مجال علم الاجتماع بفروعه المتعددة (علم الاجتماع الصناعي أو الثقافي أو الزراعي..).

الجانب الروحي متعدد الجوانب الفرعية فمنها ما يتعلق بحقيقة الروح وارتباط الروح بالبدن، ومنها ما يتعلق بتأثير القوى الغيبية في الإنسان، ومنها ما يتعلق بتأثير الاعتقاد في التفكير والسلوك، ومنها ما يتعلق بالعلاج الروحاني

الجانب العقلي؛ فهو ميدان عدة اختصاصات فرعية أيضا مثل علم الأعصاب وعلم النفس العصبي وعلم النفس العام وعلوم التربية

وليس هذا النموذج إلا إطارا لاعادة تركيب الآراء المتفرقة عن الإنسان في مختلف كتب ابن القيم بهدف تصنيفها وتنظيمها لتكوين صورة متكاملة أو ملح للإنسان في فكر هذا العالم ؛ وذلك ضمن إطار أزعم أنه إطار تكاملي؛ أي إطار تتكامل فيه الأبعاد الذكورة أعلاه مما يمكننا من فهم أفضل للإنسان من جهة، ولتفادي المقاربات والتناولات الجزئية والتجزئية للإنسان التي سادت وما تزال تسود مختلف الاختصاصات في العلوم الحديثة.

وعليه، فالمنهج المعتمد في هذه الدراسة هو المنهج الاستقرائي الذي ينطلق من الجزء إلى الكل؛ بهدف تكوين صورة كلية للإنسان لا تهمل أبعاده الجسدية والروحية والعقلية والوجدانية والسلوكية على أن يتعاون مختلف المختصون على تشكيل وبلورة هذه الصورة من خلال أبحاثهم وجهودهم التي ينبغي أن تتدرج ضمن هذا التصور الذي يراعي تفاعل وتكامل مختلف أبعاد الإنسان.

وإذ أشير إلى أن هذا النموذج المعتمد في هذه الدراسة سينتظر بشيء من التفصيل إلى مختلف الأبعاد المذكورة أعلاه إلا أنه لا يمكن لنموذج واحد أو اختصاص واحد أن يستوعب كل المجالات المذكورة أعلاه. وحسبنا أن نكتفي بإشارة إلى أهم الجوانب المشكلة لهذه الأبعاد مما يفتح المجال لاجتهادات أخرى ضمن هذا التصور.

وكتحديد إجرائي مبدئي؛ فإنني أشير إلى أن الجانب النفسي في هذا النموذج متضمن خصوصا في الجانبين: العقلي والوجداني؛ وإن كان هذان الجانبان -كما سيتبين ذلك لاحقا- يتفاعلان ويتكاملان مع بقية الجوانب الأخرى. ولكن مفهوم النفس عند ابن القيم لا يعني ذلك بالضبط إذ أوضح كما سيشرح ذلك بالتفصيل أن هذا المفهوم قد أتى في القرآن الكريم بعدة معان من بينها بمعنى الروح وبمعنى الجسد.

ويتحدد الجانب الجسمي اجرائيا أيضا في هذه الدراسة بالأعضاء التي تكون بدن الإنسان سواء كانت مرئية كالرأس واليدين والرجلين وأعضاء الحواس، أو غير مرئية (الأعضاء الداخلية) كالكبد والقلب والدماغ مما سيأتي شرحه في المحور المتعلق بهذا الجانب.

الجانب الوجداني فهو ميدان علم النفس والشعر والفنون بصفة عامة والطب النفسي والطب العام وعلم وظائف الأعضاء

الجانب السلوكي هو تعبير لتفاعل وتبادل التأثير والتأثير الذي يتم بين مختلف الأبعاد التي تشكل شخصية الإنسان

أما الجانب الاجتماعي فهو متضمن في البعد السلوكي الذي هو -كما أشرت- حصيلة تفاعل وتكامل مختلف أبعاد الإنسان: الجسدية والروحية والعقلية والوجدانية. وقد أفاد ابن القيم في شرح هذا الجانب؛ أي الجانب الاجتماعي، وخاصة في بعده الأخلاقي مما يتطلب دراسة مستقلة في هذا الموضوع الهام. ولاشك، أن للبعد السلوكي جانبين: جانب مرئي وجانب غير مرئي. يشمل الجانب المرئي من السلوك التفاعل مع الآخرين بينما يشمل الجانب غير المرئي نشاطات لا ترى مباشرة مثل التخيل والتفكير.

وأشير إلى أن هذا النموذج لا ينظر إلى كل جانب أو بعد بصفة منفصلة عن الجوانب أو الأبعاد الأخرى إلا بصفة مؤقتة وشكلية بهدف التعمق في فهم كل جانب على حدة مع تبيان تأثير كل جانب في الجوانب الأخرى وتأثره بها. وكان الباحث قد عرض هذا النموذج بالتفصيل في دراسة أخرى تحت عنوان "الإنسان المتكامل في القرآن الكريم"⁴.

وعموماً، فإن هذا النموذج يقوم على بعض المسلمات من أهمها:

- 1- تفاعل الأبعاد الخمسة المذكورة.
- 2- تبادل التأثير والتأثير بين هذه الأبعاد.
- 3- عندما يضطرب بعد من هذه الأبعاد فإن ذلك يؤثر سلباً في الأبعاد الأخرى مما يؤدي إلى اضطرابها جميعاً أو اضطراب بعضها ولو بنسب متفاوتة.
- 4- عندما يضطرب بعد من هذه الأبعاد تتجند باقي الأعضاء: كلها أو بعضها ولو بنسب متفاوتة لمعالجة هذا الاضطراب، وإعادة التوازن للشخصية وفق تداعي قانون الأعضاء المذكور في الحديث الشريف: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى"⁵.
- 5- يمكن مقارنة هذه الأبعاد بألوان الطيف؛ فهي سبعة ألوان مرئية وعدة ألوان أخرى غير مرئية بالعين المجردة ولكن مجموعها يشكل لونا آخر يختلف تماماً عن بقية الألوان وهو اللون الأبيض؛ أي أن الكل الذي يتشكل من ألوان الطيف أو قوس قزح يختلف تماماً عن مجموع الأجزاء أي الألوان التي تكونه.

المنهج المعتمد في هذه الدراسة هو المنهج الاستقرائي الذي ينطلق من الجزء إلى الكل؛ بهدف تكوين صورة كلية للإنسان لاتصلح أبعاده الجسدية والروحية والعقلية والوجدانية والسلوكية

أشير إلى أن الجانب النفسي في هذا النموذج متضمن خصوصاً في الجانبين: العقلي والوجداني؛ وإن كان هذان الجانبان -كما سيبين ذلك لاحقاً- يتداخلان ويتكاملان مع بقية الجوانب الأخرى

وكذلك الإنسان وإن كان يتكون من عدة أبعاد بعضها مرئي وقابل للملاحظة المباشرة وغير المباشرة، فإن بعضها غير قابل للملاحظة المباشرة تماما، ويتطلب مناهج وأدوات مناسبة لدراستها قد تختلف تماما عن الأدوات المستعملة لدراسة الجوانب والأبعاد القابلة للملاحظة.

والملاحظ أن الإنسان ككل أو وحدة كلية يختلف تماما عن مجموع الأجزاء التي تشكل هذا الكل مهما استقصينا هذه الأجزاء وحاولنا إحصاءها وتعدادها مهما يجعلنا نستنتج أن منهج الاستقراء الناقص يغنينا عن اتباع منهج الإستقراء التام العقيم.

ولاشك أن استعراض آراء ابن القيم المتعلقة بموضوع هذه الدراسة سيوضح لنا كيف أن هذا العالم الفذ قد أقام علاقات واضحة بين مختلف أبعاد الشخصية، وأوضح كيفية تبادل التأثير والتأثير بين هذه الأبعاد على ضوء ما لديه من النصوص الشرعية الثابتة، وعلى ضوء المعطيات العلمية والطبية في عصره وعلى ضوء المشاهدة والتجربة الشخصية أيضا دون أن يغفل الإشارة إلى ارتباط ذلك كله بالواقع كما فعل في كتابه "الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية"، وإلى ضرورة فهم هذا الواقع في استنباط الأحكام والحلول واستنتاجها واستقرائها في بعض الأحيان.

وسيشار إلى هذا الموضوع لاحقا لما له من أهمية في مناهج البحث العلمي ونتائج ذلك على مستوى فهم المشكلات المطروحة في الواقع وإيجاد الحلول العملية لها بناء على ذلك الفهم.

وانطلاقا من المسلمات المذكورة أعلاه؛ فإننا نبسط موضوع الأبعاد المشكلة لشخصية الإنسان عسى أن يؤدي هذا التبسيط والفهم إلى تشكيل تصورات نظرية واضحة عن شخصية الإنسان قائمة على التناول التكاملي والتفاعلي لهذه الأجزاء. ونظرا لكون الجانب الجسمي (البدني) من أسهل أبعاد الشخصية القابلة للملاحظة والدراسة، فإننا نبدأ الحديث به علما بأن ابن القيم من الذين يعتقدون بأن خلق البدن سابق لنفخ الروح فيه كما سيبتين ذلك عند الحديث عن البعد الروحي للإنسان في فكر ابن القيم.

عندما يضطرب بعد من هذه الأبعاد فإن ذلك يؤثر سلبا في الأبعاد الأخرى مما يؤدي إلى اضطرابها جميعا أو اضطراب بعضها ولو بنسب متفاوتة

عندما يضطرب بعد من هذه الأبعاد تتجند باقي الأعضاء: كلها أو بعضها ولو بنسب متفاوتة لمعالجة هذا الاضطراب

الراشدون

الفكر في التراث الاسلامي

12

2015

أصدارات 2014



الفكر وعلومه، ما من منظور ثقافي مختلف

إصدارات: مؤسسة العلوم النفسية العربية

